النفس والآخر والعالَم

عبد الرحمن السالمي

يبدأ المنهج القرآني في الإصلاح والتجدد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] وقد أوضح الله ﷻ بقوله: ﴿كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: 13] وأن عليها أن تعِيَ ذلك لتخرجَ من أسْر الهوى، وفي الوقت نفسه من أسْر العجز عن الانطلاق بالوعي الجديد إلى أفق التكوين الإنساني الاجتماعي، وإلى أفُق بل آفاق تحقيق مُراد الله سبحانه من وراء استخلافه للإنسان في الكون، أي عمران العالم بإنسانية الإنسان؛ فالوعْيُ أو «العقل عن الله» ـ كما عبّر المحاسبي (243هـ) ـ هو بداية الطريق الفاتحة لكلّ ما عداها، والمتجهة بالتحقق المستمرّ والمتطور إلى الآفاق غير المحدودة أو التي لا يحدُّها غير عالَم عبادة الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فعالَم العبادة هو عالم التحقق بتلك الإنسانية المزوَّدة برسالة الإسلام، ودعوة محمد ﷺ، إنها الدعوة التي حدَّ القرآن مقاصدَها بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

إنّ دعوة رسول الله صلوات الله وسلامُهُ عليه إذاً هي دعوةُ النفس الإنسانية لاستكشاف الفطرة التي فطرها الله عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، وقد اختار الله ﷻ مكة وفيها البيت الحرامُ لتكون البيئة أو الموطن الأول لهذا الاستكشاف المستجد للكرامة التي كرَّمَ الله بها بني آدم كما جاء في عددٍ من آيات القرآن. وفي مكة تكوَّنت على وقْع دعوة النبي ﷺ الجماعةُ الأولى الواعية. فلمكّة مواريثها في هذا الشأن الجليل، مواريث إبراهيم وإسماعيل. إذ على يد وبعزيمة أبي الأنبياء وولده وُضع أولُ بيتٍ لعبادة الله، ومن الدعوة الإبراهيمية أو بها وفيها عرف الإنسانُ حقائق فطرته، فتجدد انتشار دعوة الوحدانية في العالم، ليكتشف الإنسانُ الواحدُ أو المتوحد الإله الواحد، وبحسب التصور القرآني فإنّ الوحدانية تقتضي عبادة مَنْ له الخَلْقُ والأمر، وعلى هذا جاءت دعوةُ رسول الله ﷺ آخذةً بمواريث إبراهيم، وباعثةً للفطرة إلى أقصى درجات رقيها وتحققها، وهكذا كان هناك التحققان الكبيران:

تحقُّق الوعي المتجدد في دواخل الذات، وتحقُّق ظهور الجماعة التي تنشر هذا الوعْيَ من دون كلل ولا تردد، وتأتي الهجرة في هذا السياق بالمعاني الثلاثة: المعنى النفسي والآخر الاجتماعي، والجغرافي، والثالث العالمي والإنساني، فقد كانت الهجرةُ إلى «المدينة» مضياً في هذا السبيل ذي الثلاث شُعب: شعبة الانتقال من الفرد إلى الجماعة، وشعبة الانتقال من الجماعة إلى المجتمع والأمة، وشعبة الانتقال من الأمة إلى الآفاق العالمية والكونية: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، وفي تقديم الآفاق على النفس في الآية الكريمة إشعارٌ بسموّ وأهمية الهدف النهائي للدعوة والرسالة؛ إذ المُرادُ والمقصد وضْعُ الإنسانية جمعاء في سياق عبادة الله بإعمار العالم بهُدى الله وفي سبيله الواضح عزَّ وجلّ؛ فكلما تقدّمت الدعوةُ في الأنفُس والآفاق، تقدّم الاستكشاف الدؤوب لإنسانية الإنسان ووحدته العميقة وطبائع الخير والتسامي فيه. وهكذا أدرك المسلمون الأوائل المهمةَ التي عهد الله ورسوله

إليهم بها، ونظير ذلك في قول زهرة بن حوية يوم القادسية لرستم قائد الجيش الفارسي عندما سأله عن أسباب خروجهم من جزيرتهم: جئنا لنُخرِجَ الناس من عِبادة العِباد إلى عِبادة ربّ العِباد، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد وقعت التجربة الإسلامية في العالم بين الكونين: الكون القرآني المسطور، والكون العالمي المنظور، وهو ما نعرفه جميعاً باسم التجربة التاريخية للتحقُّق، أو تحقق الرسالة النبوية في العالم، والتجربةُ هذه سعيٌ دؤوبٌ للتحقق، وبالطبع فإنها تكون مليئةً بوجوهٍ وعوائق كما هو شأنُ البشر في عالم الإنسان، عالم الكون والفساد، ولذا يبدو الأمر في بعض الفترات والحقَب كأنما ما عاد الهدفُ أو المقصد واضحاً، وفي أحيانٍ أخرى كأن ما يجري هو عكس ما أراده الله ﷻ من الرسالة الإلهية للمسلمين وللبشر بعامة.

ثم يحدث في أزمنةٍ أُخرى أن يبدو المُرادُ الإلهي متلألئاً واضحاً، وليس بسبب ظهور رجالاتٍ ونُخبٍ جديدة، وظروفٍ يسودها توفيقُ الله سبحانه وتسديدُه وحسْب؛ بل ولأنّ القرآن الكريم ـ كتاب الكون المسطور ـ ظاهرٌ وواضحٌ وباقٍ، تعيش الأمة وتحيا بين جنباته الفسيحة، وتستقرئُ فيه ـ من دون حواجز ـ إرادة الله سبحانه وهدايته، ومن هنا جاء تقريره صلواتُ الله وسلامُهُ عليه: **تركتكم على المَحَجَّة البيضاء ليلُهَا كنهارها لا يضلُّ عنها إلّا هالِك، كتاب الله وسُنَّة رسوله.**

ومعنى ذلك أنه في كل عصرٍ وآنٍ؛ فإنّ المسلمين يظلُّون بمشهدٍ من هذه المحجة البيضاء: يحيون حياتهم بحسبها، ويحاولون أن يتقدّموا في فهم آفاقها أفراداً وجماعات، فيسدّدون ما اختلَّ، ويكملون ما نقص، ويصلون ما انقطع بين كتابهم وسُنَّة نبيهم من جهة، وأنفسهم وجماعاتهم وظروفهم وعالمهم من جهة أخرى. ثم إنهم يظلُّون على بينةٍ من المهمة المُلْقاة على عاتقهم ليس تجاه أمتهم فحسْب، بل وتُجاه العالم، فهم الشهداء على

الناس، وهم الذين يملكون مسؤولياتٍ جساماً إزاءه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 44]، فالشهادةُ على الناس تقتضي القيام بالمسؤوليات تُجاههم، والمسؤولياتُ تتناول الدعوة إلى الخير، كما تتناول ممارسة الخير في هذا العالم ومعه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64] إنها «الكلمة السواء» أو التعبير عن ربط النفس بالآفاق، وهي تتضمن أمرين: الدعوة لعبادة الله قولاً وعملاً، والدعوة إلى تحرر البشرية من أعراض التجبر والعدوان بين بني البشر قولاً وعملاً لصالح نهج التعارُف والتسَانُد والتضامن لما فيه خير البشرية ورخاؤها وسلامُها وعدْلُها؛ بيد أنّ هذه المسؤولية لا تنتهي عند رفض الآخرين أو قبولهم للدعوتين، إذ على الداعية بالقول والعمل أن يظلّ عاملاً بمقتضى إيمانه وبمقتضى إسلامه؛ فلا يُعرضُ عن الحق لأنّ الآخرين أعرضوا، ولا يعمل السوء تجاه الآخرين لأنّ الآخرين أساؤوا، وهذا ليس مقتضى «الكلمة السواء» بحسب النصّ القرآني، بل هو أيضاً مقتضى نهج النفس والآفاق، نهج الرؤية الإسلامية لعالم الإنسان والعلائق السوية به.

إنّ لدينا إذاً تجربتين للسير في نهج النفس والآفاق:

تجربة الرسول صلواتُ الله وسلامُهُ عليه وأصحابه الأوائل، والتجربة التاريخية للأُمة، ونحن نعيشُ على ضيقِ وسعةِ التجربة الثالثة باختباراتها ومحنها وقضاياها ومشكلاتها، لقد عرفت الأُمة صعوباتٍ كبرى في حياة رسول الله ﷺ وهي زمن التجربة الأولى، بمصاعب وعقبات البدايات، ثم عرفت صعوباتٍ في التجربة التاريخية بعد انقضاء العهد الأول، وهي التجربة التي وضعت المسلمين وإسلامهم في الكثير من الأحيان في مواضع وأحوالٍ بالغة الشِدَّة، ولم يستطيعوا الخروج منها ومن مِحَنِها في الغالب إلّا بالرجوع إلى الذات الفردية والجماعية، كما أمرهم ﷻ وأرادهُم.

ويمرُّ المسلمون اليوم ـ بل ومنذ عهود ـ بوقائع التجربة الثالثة أو الحاضرة، والتي يعانون فيها من تفاوتاتٍ ضخمةٍ ووجوه قصورٍ في إدراك الأمرين أو المستويين: مستوى الرؤية الداخلية الفردية والجماعية، ومستوى الرؤية الأخرى للآفاق، أو مع العالم وفيه.

في مجال الرؤية الداخلية هناك الخطر الظاهر في رؤية النفس والأُمة، وإهمال الإصلاح، وعدم قراءة التجارب والدروس الماضية والحاضرة، وفي المجال الآخر أو المستوى الآخر هناك العلاقاتُ السيئة أو المتردية بالمحيط والعالم، وكما في كل مرةٍ كما عوّدنا سبحانه، عندما تبلغ القلوب الحناجر بحسب تعبير القرآن، ويسأل الناس، متى نصر الله؟ يكون نصر الله قريباً عندما تلتمسه الأمة بحسب نهج «المحجَّة البيضاء» الذي قدّره لنا رسول الله ﷺ.

إنّ في هذا العدد من مجلة التفاهم عودةً إلى نهج النفس والآفاق، نقرأ الرؤية القرآنية من جديد ونلتمس التعرف على العالم والأُسس التي نحتاج لتذكرها في كلِّ آن، ونقرأ التجربة التاريخية للأمة في العالم ومعه وفيها ما يمكن أن يُفيد عملاً أو تركاً، ونقرأ أخيراً تجارب الأُمم الأُخرى في التعامل معنا، وفي التعامل في ما بينها، وفي كل ذلك التماسُ للوعي والقيم، وتهيُّبٌ لما يقع عندنا ولنا، ومُراجعةٌ لإمكانيات التصحيح وسُبله.

وبالله التوفيق